بعض خصائص الخطاب الإحالي في قصّة "دومة ود حامد" للطيب صالح

عبد المنعم شيحة
جامعة منوبة ـتونس

I. تمهيد:

يتنزّل بحثنا في قصة "دومة ود حامد" للأديب السوداني الطيّب صالح ضمن دراسة قضيّة المرجع في القصص العربيّ المعاصر ومحاولة استصفاء بعض خصائص الإحالة داخل النصّوص القصصية، مُتجاوزين قدر المُستطاع ما غُلّق من عناصر آناء الدراسة البنيويّة للقصص.

إنّ ما يُحسب للسرديات على امتداد العقود التي تلت نظريات جيرار جينات وتودوروف وبارط وبريمون....فيه، ما أنجز من دراسات علميّة شرّحت النصّ القصصيّ وحلّلت أنساقه السرديّة وقرأت جملة العلاقات القائمة بين عناصره وفق مبدإ المحايثة الذي فصل النصّ عن كلّ ما يحيط به.

لذلك بات من الضروري اليوم السعي إلي توسيع مجالات دراسة القصص علي نحو ما فعل أهل التداوليّة عندما وصلوا النصّ بلسانيات التلفّظ، ونظروا في أوضاع المتخاطبين أثناء التلفّظ ليصبح المقام السرديّ من متطلّبات دراسة القصص.

ونحن نحسب أنّ البحث في مراجع القول وكيفيات تشكّلها داخل الخطاب القصصيّ من مجالات البحث الجديرة بالاهتمام لما لها من أهميّة آن الحديث عن عوالم القصّ، وكيفيات قدّها وفق وجهات نظر خالقها-بالمعني الأدبي-.

لذلك سيكون نظرنا في هذا "النصّ-المثال" محاولة لاستكناه بعض خصائص الخطاب الإحاليّ في نصوص قصصيّة تتلوّن بوجهات نظر المتكلّمين فيها، وجهات اعتقادهم.

II. تقديس المرجع في "دومة ود حامد" للطيب صالح:

1. القصة:

- **قراءة في العنوان:**

يرد عنوان القصة اسما معرّفا بالإضافة، ونستنتج ببعض الجهد ومعرفة سابقة بكتابات الأديب السوداني الطيب صالح أنّه اسم لمكان تستقرّ فيه هذه الدومة-أو النخلة العالية-وأنّ الأمر يُأخذ في مقصده على أنّه مجاز عقليّ.

فالمُحال عليه من العنوان هو اسم لمكان ما-سودانيّ لا شكّ-وإن ورد الاسم المضاف، فيه-أي النخلة-منسوبا إلى شخص-ود حامد-في محلّ المضاف إليه.

إنّ النخل عند العرب قرين الأرض وقرين الثبات، وهو في إحالاتهم يرتبط عادة بالمكان ولا ينفصل عنه كقولهم "نخيل المدينة ونخيل نجد ونخيل الأهواز".

وتعيدنا هذه العنونة المُحيلة على المكان إلى مرجعيّة مألوفة في الرواية العربيّة المعاصرة تُنسب فيها الرواية إلى أمكنة "واقعيّة" لها دلالاتها المُسبقة عند الناس من أمثلة روايات نجيب محفوظ "خان الخليلي" و"قصر الشوق" و"السكّرية" و"زقاق المدق" وغيرها...

أمّا إذا حططنا الرحال عند متن القصة فنكتشف أنّنا لم نحرف قراءة العنوان كثيرا، فدومة ود حامد تُعرّف بها هذه القرية النيليّة المنسيّة التي لا تكاد تمتلك شيئا إلاّ دومتها "عندكم في المدن المتاحف أماكن تحفظ تاريخ القطر والأمجاد السالفة.هذا الشيء الذي أحبّ أن أريكه قل إنّه متحف. شيء واحد نُصرّ أن يراه زوآرنا" (الدومة ص33).

وهي كذلك موجودة في القرية منذ عرف الناس القرية "كلّ جيل يجئ يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده و نمت معه"(الدومة ص35) وهما لا تكادان تنفصلان في مخيّلة أهلها "و منذ كانت بلدتنا، كانت دومة ود حامد"(الدومة ص39).

فهل نُساق بهذا التمشي إلى استكناه معاني الدومة ومراجعها خارج حدود القصّة، وفي مضارب التاريخ الذي عاصره الطيّب صالح ونهل منه؟

أنّنا وإذ لا ننفي أنّ عالم الناس أو الواقع هو مصدر مراجع النصّ ومادّته الخام، نُسلّم مع باحثي السرديات أنّ أبرز ما يميّز ملفوظات التخييل القصصي انقطاعها عن المرجع.

فهي لا تصل المتقبّل لخطابها بمرجعيّة واقعيّة لها وجود حقيقيّ في عالم الناس وإن أوهمت بذلك أو قصدت كما أشرنا سلفا آن حديثنا عن العنوان.

لذلك سيكون بحثنا في "الدومة" بحثا في تلك الدلالة الجديدة التي يُنشئها سياق القصّ وهو يرسم ملامح المراجع فيه، ويصوغ خطابه الإحاليّ وقد التبس بمنطقه.

●خصائص مرجع الدومة:

مرجع الدومة في قصة الطيّب صالح هو جوهر القصّ، وهو المرجع الأكبر الذي ترتبط به بقيّة المراجع بطريقة أو بأخرى، إذ لا مرجع في النصّ إلاّ ويرتبط بالدومة سلبا أو إيجابا.

وهذا يعني أنّ الوظيفة الإحاليّة للدومة هنا هي وظيفة تعيينيّة بها يتحدّد المجال الذي تقع فيه أحداث النصّ وعنها تتوالد الحكايات والأخبار.

إنّ إشعاع مرجع الدومة على كلّ الأحداث في الأقصوصة له مبرّراته التي تظهر من خلال تحديدها للعلاقات بين الأطراف المتداخلة في النصّ: بين أهل القرية والغرباء عنهم، أو بينهم وبين الحكومات المتعاقبة على السودان.

وقد ظلّت العلاقات مُتقابلة على مرّ أحداث القصّة، فهي إمّا مع الدومة أو ضدّها. لذلك فاء هذا المرجع على كلّ الأحداث فيها حتى لا نكاد نجد حدثا لا يرتبط بالدومة بطريقة أو بأخرى.

وقد ورد النصّ على لسان متكلّم يقصّ نُتفا من أحداث القرية وتاريخ دومتها على مرويّ له -في مقام الضيف-يستعدّ للمغادرة صباحا مثل غيره من الزوّار الذين لم يطيلوا المكوث في هذه القرية المعزولة.

وحتى الأحداث القليلة في الحكاية والمتزامنة مع أقوال المتكلّم جاءت في نطاق سرد الأقوال من مثل قول المتكلّم:

-"ها قد وصلنا...تصبّر يا بني ماهي إلاّ ساعة و تهبّ نسمة العصر" (الدومة ص37)

- "هيآ بنا يا بني إلى البيت...هذا الوقت قبل المغرب بقليل"(الدومة ص37)

- "تفضّل يا بني البيت بيتك" (الدومة ص38)

- "أمهلني يا بني ريثما أصلي صلاة المغرب... يقولون أنّ المغرب غريب إن لم تدركه فاتك... السلام عليكم ورحمة لله... السلام عليكم ورحمة لله. وي. وي هذا الظهر يوجعني منذ أسبوع" (الدومة ص39).

ولم يستحل المرويّ له راويا إلاّ في السطور الأخيرة من القصة، في حين وردت استفهاماته القليلة-في شأن الدومة- على لسان المتكلّم من قبيل:

- "تقول من زرع الدومة؟ ما من أحد زرعها يا بني." (الدومة ص35).

إنّ هذا الأسلوب في القصّ الذي يُسلّم فيه السرد إلى متكلّم لا يكاد يترك الكلام، له غاياته القصوى التي نتبيّنها في آخر النصّ حين يسكت الشيخ عن الكلام المباح ويعود المرويّ له راويا يتحدث عن الحزن المُبهم الذي خلّفته الحكاية في نفسه ووصيّة المخاطب الأخيرة.

يقول في آخر الرواية "إنّك ولاشكّ راحل عنّا غدا. فإذا وصلت إلى حيث تقصد، فاذكرنا بالخير ولا تقس في حكمك علينا"(الدومة ص52).

لقد كان الراوي وفيّا لما أضمره فنقل لنا كلام الشخصيّة الرئيسية ضمن خانة الخطاب المنقول(le discours rapporté) في صنافة جينات(1972) وقد قلّص من حضوره حتى كاد الخطاب يصبح فوريا(Discours immédiat) وفق صنافة هذا الباحث[1].

لذلك جاءت مراجع الحكاية – وأساسا الدومة- مسرودة من وجهة نظر المتكلّم، مُلوّنة بجهة اعتقاده في مختلف تفاصيلها. وهي إذا شئنا تلخيص أحداثها لا تخرج عن التالي:

◊ سرد تاريخ الدومة وجملة كرامات الوليّ الصالح ود حامد.

◊ سرد تاريخ الصراع حول الدومة بين الأهالي والحكومات المتعاقبة.

◊ سرد تاريخ القرية، وحياة سكّانها الرتيبة، وصراعهم اليومي مع ما لا يحتمله غيرهم مثل النمّتة وذباب البقر والحرارة.

لقد وردت هذه الأحداث التي سردها المتكلّم مُتداخلة، مُتساندة، تأخذ بأعناق بعضها وفق مبدإ شجون الحديث الذي لا يندّاح منظّما أبدا، ولكنّه يصبّ في مُجمله ضمن خانة "صناعة الأسطورة" أو خلق المرجع الأسطوري الذي يبدأ صغيرا ثمّ يتدحرج ليكبر ككرة الثلج تبعا لتراكم السرد وتوالد المدلولات من رحم الدوال، وهى تتراصّ تباعا لوصف الدومة أو سرد تاريخها وحكايات الصراع حولها.

وهكذا يتشكّل أمامنا مرجع مُعقّد، مُتضخّم، لا يمتّ بصلة إلى مراجع الواقع لأنّه قُدّ من لغة ونُحت في أذهان شخصيات قصصيّة-هم سكّان القرية أو الوعي الجمعيّ في تعريف نشأة الأسطورة-كما تبلور على يديّ الشيخ المتكلّم الذي ينوب الوعي الجمعيّ وينطق باسمه.

ومن ذلك قوله مثلا: "ونحن حين ترتدّ بنا ذكريات الطفولة إلى الوراء، إلي ذلك الحدّ الفاصل الذي لا تذكر بعده شيئا, نجد دومة عملاقة تقف على شطّ في عقولنا، كلّ ما بعدها طلاسم فكأنّها الحدّ الفاصل بين الليل والنهار"(الدومة ص35).

ولكن كيف صيغ هذا المرجع صياغة قصصيّة؟ وكيف عبر إلينا مُتلبّسا بمقاصد الذات المتكلّمة؟

2. أن ترى ما نرى(نحو توجيه الوصف):

نشير بداية أنّنا لا نستطيع تناول المراجع في القصّ دون ربطها بالمتكلّم وهو يصوغ خطابه إلى مقول له داخل النصّ.

فيصنع عندها خُططه واستراتيجياته محاولا الإيهام بالحياد والتستّر ولكنّه لا يستطيع أن يقدّم إحالاته إلاّ ملتبسة بوجهة نظره، وبجهة إدراكه للأشياء وبمختلف مواقفه ومعتقداته وإيديولوجيته التي يسعي إلى الإقناع بها وإن ضمنا.

لذلك لا ينفصل المرجع في "دومة ود حامد" عن الإدراك (perception)، أي الطريقة التي يدرك بها هذا المتكلّم الأشياء، وينقلها للمرويّ له.

وقد ربطها علماء القصص الأنقلوسكسونيين خاصّة، بوجهة النظر (Point de vue) معتبرين أنّها ترد مُضمّنة في العمل القولي الذي ينشأ بين المتكلّم والمخاطب والمقام الرابط بينهما ويصحّ فيها النظر إلى الأشياء بحسب الموقف الذي قد يُتّخذ منها[2] .

لقد حاول المتكلّم إيهام مخاطبه أنّه "يعقلن" حديثه عن القرية فجمع في حديثه بين القسوة عليها والافتخار بها، بين التألّم لحالها والقبول بها مقرّا ومستقرّا.

وقد حاول قدر المستطاع عزل وجهة نظره عن وجهة نظر سكّان القرية بل ادّعي مسايرته المرويّ له وفهم ثقافته وطبيعة تركيبة أبناء البنادر فيه، فسعي لشرح ما غمُض عليه وطلب إثارة الدهشة والانبهار لديه.

لكنّنا ما أنعمنا النظر في دواخل قوله نتبيّن ضروبا من الذاتيّة كلّما تحدّث عن المرجع الأكبر في النصّ وأساسا كلّما **وصفه**.

وهي ذاتيّة مشوبة بنوع من محاولة التوجيه أو التأثير في المخاطب وخاصّة عند توظيف فعل الإدراك الرئيسي أي الرؤية وربطه بضمير المخاطب المفرد "أنت"، كما نتبيّن ذلك من هذا الجدول:

أفعال الإدراك	المُدرك	المُحال عليه (الدومة)
◄أنظر إليها ◄أنظر إلى	←أنت	♥أ-"أنظر إليها ضاربة بعروقها في الأرض، أنظر إلى جذعها المكتنز الممتلئ كقامة المرأة البدينة وإلى الجريد في أعلاها كأنّه عرف مهر جامح ".
◄أتراها	←أنت	♥ب-"أتراها عقابا خرافيّا باسطا جناحيه على البلد بكلّ ما فيها".
◄أنظر إليها ◄يا بني	←أنت	♥ج-"أنظر إليها يا بني شامخة، أنفة، متكبّرة، كأنّها صنم قديم".
◄تراها	←أنت	♥د- "أينما كنت في هذه البلدة تراها".
◄لتراها	←أنت	♥هـ- "بل إنّك لتراها وأنت في رابع بلدة من هنا".

إنّ تحليل المُحال عليه في هذه القصة يتطلّب تنزيله في السياق المقالي الذي ورد فيه، كما يقتضي تعليقه بمنطق الأحداث الآخذة برقاب بعضها لتقريب صورة القرية ودومتها للمرويّ له المتألّم والمُستعدّ للرحيل، قبل أن يغادر ويصبح في درجة ثانية راوية للأحداث.

علي المرويّ له أن يتشرّب القرية ودومتها حتى "يذكرها بالخير ولا يقسو عليها"، لذلك جاءت العبارات الصائغة للمرجع المُحال عليه ضمن مقاطع وصفيّة مكثّفة.

ثبت فيها الموصوف وتعدّدت الموصوفات بل تكرّرت وفق نسق تصاعديّ يرسم الدومة من مختلف زوايا النظر المُمكنة التي يتّخذها السارد (من بعيد /من قريب/تحت الدومة/وسط القرية /عند ضفّة النيل...).

ولنأخذ مثالا على هذه **الطبقة الأولى** من الوصف التالي: *" بل إنّك لتراها وأنت في رابع بلدة من هنا."

ولا يكتفي الواصف بالوصف متعدّد الزوايا فقط بل يُدمج وجهة نظره طيّ الوصف فإذا بالموصوفات تنأي عن الموضوعيّة أو ما يُسميه فيليب هامون" منطق الوصف" لتأخذ أشكالا ملوّنة بذات واصف عاشق، مُتغزّل، يذوب صبابة في معشوقه.

أو لنقل وفق المنطق الذي أسّسنا عليه طرحنا، أنّ المتكلّم ينحت بأوصافه صورة أسطوريّة للدومة يصعب علي المرويّ له نسيانها.

ومثالنا على هذه **الطبقة الثانية** من الوصف التالي:

*"شامخة، متكبّرة، كأنّها صنم قديم"/ * "عقابا خرافيّا باسطا جناحيه على البلد بكل ما فيها"

ولا يتوقّف الأمر عند الإيغال في الوصف وإخراج المرجع مخرج المقدّس الذي يُقدّ من قطع مركبّة (puzzle) مُتماسكة، مُكمّلة لبعضها البعض.

وإنّما يُقرن الوصف بمحاولة توجيه نظر المخاطب إلى الصور التي يعتقد فيها المتكلّم، ودفعه إلى الاعتقاد في ذات المعتقد واعتناقه إن لزم الأمر.

فقد قدّمت لنا أفعال الإدراك-في الجدول-الأمر على أنّه مجرّد نظر بالعين المجرّدة لا ضرر منه (انظر إليها، أتراها، أنظر إليها يا بني، تراها) وكشف لنا قسم المُدرك، أنّ المعنيّ بعمليّة الإدراك هو المرويّ له(أنت، أنت، أنت..).

ولكنّنا ما توّقفنا عند قسم المحيل عليه، بدا الأمر لنا متجاوزا لمجرّد الإدراك بالبصر. فالموصوف الذي يُطلب مشاهدته بفعل "أنظر" هو النخلة العالية يستحيل في هذه **الطبقة الثالثة** من الوصف عقابا أسطوريا باسطا جناحيه على البلدة بكلّ ما فيها.

يقول: "أتراها عقابا خرافيّا باسطا جناحيه على البلد بكل ما فيها." وشتّان بين النخلة والعقاب الأسطوري، إذ تنتمي الصورة الأولى إلى عالم المُدركات التي قد يراها المرويّ له بنظره. أمّا الصورة الثانية فتُربط بالاعتقاد والتأويل والرؤية بغير العين المجرّدة.

وهذا التلاعب من قبل المتكلّم فيه سحب للمخاطب إلى طبقات من الرُؤية عميقة، تبدأ بالعين المجرّدة -ما داما يقومان بجولة قرب الدومة-وتنتهي برؤية توجيهيّة مقرونة بأداة الاستفهام الإنكاريّ "أ" الذي يجئ في ظنّ المتكلّم ولا مفرّ للمخاطب منه.

فيصبح الأمر وفق الشيخ المتكلّم عن دومته ودومة قريته على النحو التالي:" عليك أن تري ما أراه لا ما تراه، فتنظر بعينك وتري بفهم أو اعتقاد أهل القرية لتكون قد عرفت الدومة".

فهل نحن مع **وصف موجّه** بعبارة إريك لي كالفيز (Eric le Calvez)[3] ؟

إنّ الظاهر ممّا رأينا يدلّ على علامات حضور المتلفّظ في ملفوظه، بل يدلّ علي علامات توجيهيّة للمتقبّل حتى يعتقد فيما يعتقده هو.

وهي عبارات تحضر فيها جهات قول تنتمي إلي ما يمكن تسميته بـ"الجهات التقويميّة (Modalité appréciatives)، وهي تلك المتعلّقة بما يُبديه المتكلّم في كلامه من أحكام وتقويمات وتأويلات للمضامين القضويّة التي يقولها"[4] من قبيل:

- "لقد اعتدنا هذه الحياة الخشنة"(الدومة ص 34).
- "بل نحن في الواقع نحبّها"(الدومة ص 34).
- "وتجيئنا في وقت ليس صيفا ولا شتاء، فلا تجد شيئا"(الدومة ص33).

ونسبة التوجيه في هذه الأمثلة إذا ما قارنّاه بالوصف الموجّه للدومة تعتبر ضعيفة ولكنّها ليست معدومة كما يذهب إلي ذلك سيرل عندما يقول"إنّ مؤلّف الأثر المتخيّل يوهم بأنّه ينجز سلسلة من الأعمال المضمّنة في القول تكون في الأصل ذات طبيعة إثباتيّة"[5].

إنّ الرواية خطاب قدره أن يكون مُوجّها على حدّ قول محمد الخبو، ذلك" أنّه من العسير أن نتحدّث عن الحياد في النصّ الأدبيّ عامة والنصّ الروائيّ خاصّة. وحتى ما يوهم الروائيّ في ما يكتب بأنّه من باب المسرود الذي لا دخل للراوي أو الرائي في توجيهه، وقد غابت فيه الموجّهات التركيبيّة، لا ينفكّ من آثار سارده أو مؤلفه".[6]

3. سحر المجاز:

ولم يتوقّف الأمر عند طبقات الرؤية الثلاثة التي رأينا وما صاحبها من استقطاب خفيّ للمخاطب وتفنّن في جرّه إلى الفخّ الذي حُفر له مُسبقا، بل جاوزه إلى توظيف الوجه الثاني للكلام (أي المجاز مُقابلا للحقيقة وجهها الأوّل) ليُضاف هذا إلى محاولات المتكلّم صبغ مرجعه الذي يحيل عليه بسمات أسطوريّة تخرجه عن فضاء المعهود أو المألوف. فكيف ذلك؟

توظيف التشبيه في وصف الدومة:

- كأنّها الحدّ الفاصل بين الليل و النهار← تشبيه مرسل مجمل
- كأنّها ذلك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر ولكنّه يسبق طلوع الفجر← تشبيه مرسل مجمل
- تقوم فوقه كالديدبان ← تشبيه مرسل مجمل
- انظر إلى جذعها المكتنز الممتلئ كقامة المرأة البدينة← تشبيه مرسل مجمل
- ..إلى الجريد في أعلاها كأنّه عرف المهر الجامحة←تشبيه تام(مرسل مفصّل)
- كأنّها صنم قديم← تشبيه مرسل مجمل

إنّ التشابيه التي أوردها المتكلّم في وصف الدومة، تساهم ولا شكّ في تضخيم المرجع، وإعطائه تلك الهالة المقدّسة التي يرنو إليها صاحب الكلام.

لقد كلف الشيخ بالدومة حتى صار إجراء الكلام"على حقيقته"آن وصفه لها، قاصرا عن تمثيلها للمرويّ له، لذلك وسمها بأهم المجازات لفتا للنظر وشدّا للانتباه، أي التشبيه قرين القدرة على قول الشعر عند البلاغيين القدامى، وقرين الإصابة في الوصف[7].

إنّ الربط التاريخي القديم بين القدرة علي التشبيه والشاعريّة هو ما استلهمه المتكلّم وهو يقدّ مرجعه من لغة تتجاوز الواقعيّ بمراحل، فأهل البلاغة على حدّ قول جابر عصفور" لم يجدوا بأسا في عدّ التشبيه علامة على الشاعريّة ودليلا على براعة الشاعر."[8] فهل نحن مع شاعر؟

إنّ الصياغة القصصيّة لمرجع الدومة استقدمت-كما بدا لنا-من فضاء الصورة الشعريّة بعض أدواتها سندا للمتكلّم الذي ثبت لنا أنّه لا ينظر بعينيه إلى النخلة موضوع الحديث.

وإنّما يعتقد ضمن وعي جمعيّ – يكاد لا يخفي علي المتفحّص-في ثابت لا تغيّره الأيّام، ولا تُبليه، ويسعى ضمن دائرة هذا الفكر الجمعي إلى تغليب هذا الثابت على المتغيّر، وهو نفسه ما نعتناه في بداية تحليلنا بالمرجع الأسطوريّ.

وقد تبيّن لنا أنّ المرجع لا يصلنا إلاّ مُستصفى من إدراك المتكلّم، ولا يُصاغ إلا بصوته. فكيف تجسّم ذلك في هذه الأقصوصة؟

4. المرجع وخلق الأسطورة:

يُبني المرجع الجوهري في القصّة على لسان المتكلّم الذي ينوب اللسان الجمعيّ للقرية فيرد ملوّنا بجهة اعتقاد الذات المتكلّمة ومن خلفها جهة اعتقاد الذات الجمعيّة، إذ يحمل أهل القرية الرؤية ذاتها حول الدومة وصاحبها، ويعتقدون الاعتقاد نفسه في كرامات الوليّ الصالح الذي مشي علي الماء وقاوم الظلم بالعبادة.

وما الذات المتكلّمة وهي تخبر عن الدومة للمرويّ له إلا ذاتا تنوب الجماعة و تنطق باسمها، لذلك سرعان ما تظهر الجماعة التي تنوء تحت حمل الأيام فـ"أهل بلدنا كما تراهم منصرفون كلّ إلى همّ يومه، ولا أذكر أنّهم ثاروا على شيء قطّ"(الدومة ص34).

وذلك عندما يتعرّض المرجع المقدّس إلى ما يمسّ اعتقادهم فيه "ولكنّهم لمّا سمعوا بأمر قطع الدومة،هبّوا عن آخرهم هبّة رجل واحد،وسدوا على مفتّش المركز السبل"(الدومة ص34).

أو كذلك "...وعصفوا بالرجل و كادوا يفتكون به، لولا أني تدخّلت فانتزعته من براثنهم، وأركبته حمارا وقلت له انج بنفسك." (الدومة ص 37)

وقد خلصنا من تحليلنا لخصائص وصف المرجع عند المتكلّم، ومن قراءتنا لجهة قوله التقويميّة إلى التداخل البيّن بين ذات الفرد وذات الجماعة في هذه الأقصوصة.

كما لاحظنا الترابط الوثيق بينهما، إذ لا تنحرف الذات المتكلّمة وهي تروي قصّة الدومة للمخاطب عن الذات الجمعيّة.

وإن كان السياق المقاميّ حاضرا في كلامها من خلال قرائن تميّزها وتهبها الأهليّة بالسرد مثل قوله في آخر كلامه "الأمر الذي فات على هؤلاء الناس جميعا أنّ المكان يتّسع لكلّ هذه الأشياء، يتّسع للدومة ومكنة الماء ومحطّة الباخرة"(الدومة ص52).

لذلك يرتبط المُحال عليه بمقاصد المتكلّم وغاياته التي يريد انجازها باعتباره عملا قوليّا يندرج في مقام تعامليّ بين مخاطب ومخاطب، وباعتباره يختلف من ناحية المقصد عن معناه الدلالي الظاهر في النصّ.

فما يعنينا أساسا هو المرجع في قصد المتكلّم الذي يسعي إلى التأثير في المخاطب، وتغيير معتقداته كما ذكر ذلك سيرل.[9]

وقد كان تتبعنا لهذه القصديّة سببا في كشف جهة النظر التي تختفي خلف الأحداث المرويّة عن دومة صاحب الكرامات، رغم أنّها بدت للوهلة الأولي موكولة إلي أصحابها الذين سردوها، وقد عزل نفسه عنها.

فقد قدّم مثلا حكاية المرأة التي مرضت ولم تتحسّن صحّتها إلاّ بعد أن استجارت بود حامد ونامت تحت دومته، على لسانها أو وفق صنافة جينات[10] ضمن تبئير داخليّ لا يعلم فيه الراوي إلاّ ما تقدّمه الشخصيّة عن نفسها.

يقول: "وتروي المرأة ما حدث فتقول:"وقفت تحت الدومة وأنا لا أكاد أقوى على الوقوف. وناديت بأعلى صوتي: يا ود حامد جئتك مستجيرة وبك لائذة..سأرقد هنا عند ضريحك،وتحت دومتك،فإمّا أمتّني، وإمّا أحييتني.ولن أبرح مكاني هذا إلاّ على إحدى الحالتين" وتستمرّ المرأة في قصّتها فتقول: "وتقلّصت على نفسي وأنا أستشعر الخوف،وسرعان ما أخذتني النومة. فرأيت الدومة وقد خرّت ساجدة. وهلع قلبي ووجب وجيبا حتى ظننته سيخرج من فمي. ورأيت شيخا مهيبا أبيض اللحية ناصع الرداء يتقدّم نحوي وعلى وجهه ابتسامة.وضربني بسبحته على رأسي وانتهرني قائلا "قومي". وقسما أنّني قمت وما أدري أنّني قمت، وجئت إلى بيتي ولا أعلم كيف جئت، ووصلت عند الفجر..وقلت لبناتي زغردن. فانكبّت علينا البلد. وقسما ما خفت بعدها وما مرضت"(الدومة ص 42)

كما قدّم لنا حلما حول الدومة وتفسيره، مرويّا على لسان امرأة تحلم، يقول: "وتسمع المرأة منهنّ تحكي لصاحبتها: "كأنيّ في مركب سائر في مضيق البحر،فإذا مددت يديّ مسست الشاطئ من كلا الجانبين. وكنت أري نفسي على قمّة موجة هوجاء...وصحت بأعلى صوتي "يا ود حامد". ونظرت فإذا رجل صبوح الوجه له

لحية بيضاء غزيرة قد غطّت صدره، رداؤه أبيض ناصع، وفي يده سبحة من الكهرمان. فوضع يده على جبهتي وقال لا تخافي،فهدأ روعي" (الدومة ص 40).

ثمّ يقدّم جارتها وهي تفسّر الحلم وفق الموروث الشعبيّ، يقول: "وتقول لها صاحبتها: "هذا ود حامد..تمرضين مرضا تشرفين منه على الموت. لكنّك تشفين منه. تلزمك الكرامة لود حامد تحت الدومة"(الدومة ص 40) .

إنّ الحلم واحد وتفسيره واحد كذلك، ولكنّ المتأمّل في طريقة صياغته وخاصّة استعمال المضارع (تروي /تقول /تحكي/تقول) بدل استعمال الماضي الدالّ على الأحداث التي مرّت وانقضت يشعرنا بتكرّر هذا الحدث ووقوعه في الحكاية مرّات ومرّات.[11]

أمّا ما أورده في سياق الخطاب فليس إلاّ أنموذج مختار يبطن قصديّة تكمن خلف قناع القصّ ذي الشجون.

كما يظهر ذلك في قوله للمتقبّل قبل حديثه عن أحلام هؤلاء: "أجلس إلى أهل القرية وأستمع إليهم يقصّون أحلامهم" (الدومة ص40)،

مُحصّل القول، إنّ المتكلّم انتقي أمثلة يقنع بها المرويّ له بجهة اعتقاده، ومن خلالها جهة اعتقاد سكّان القرية حول هذا المرجع المقدّس.

وقد كشفت لنا الأمثلة المنتقاة لإبراز كرامات ود حامد في فهم المتكلّم عن سعيه الجاهد لإقناع ابن المدارس المتعلّم بما يعتقد فيه أهل القرية، فبدت الاختيارات مُلوّنة بجهة اعتقاد صاحبها رغم محاولاته المتكرّرة جعلها جملة من الإثباتات الخاصّة بأصحابها لا يتجاوز هو فيها"حدّ الإخبار والملاحظة" على حدّ قول نيكول لي كارلر[12](Nicole le querler).

ولكنّنا ما تدبّرنا الأمر ونظرنا خاصّة في تلك العبارات التي ما فتئ يكرّرها على أسماع المخاطب مثل "حين ترحل عنّا غدا-وأنت لا شك راحل :متورّم الوجه،متوهّج العينين فأحرى بك يا بني ألاّ تلعننا، بل ظنّ بنا خيرا وفكّر فيما قصصته عليك الليلة، فلعلّك واجد أنّ زيارتك لنا لم تكن شرّا كلّها" (الدومة ص46).

أو تفسيره لفعل المرأة حين نامت تحت الدومة مستعملا نون الجمع التي تفيء بالفعل على أهل القرية دون استثناء"نحن قوم لا نعرف دروب المستشفيات في الأمور الصغيرة،كاللدغات والحمى والفكك والكسر،نلزم الفراش حتى نشفى.وفي المعضلات نذهب إلى الدومة"(الدومة ص 43).

ثمّ أساليب الإقناع بالاستماع والتصبّر التي وظّفها لشدّ انتباه المرويّ له وقد ضاق ذرعا من النمّتة-وفق قول المتكلّم طبعا-

ما تدبّرنا هذا وغيره نكشف جهة الاعتقاد التي يسعي المخاطب إلى تمريرها، ونستدلّ على الجهد المبذول في شرح أسطورة الدومة وتبرير الأحداث التي وقعت وأسباب قبول أهل القرية بأوضاعهم رغم البؤس والفقر وانعدام المعونة من الحكومة المركزيّة.

إنّ قدسيّة الدومة كما فهمنا من خطاب المتكلّم عوّضت الناس عن مضخّة الماء ومحطّة السفينة وعن أشياء أخرى كثيرة.فكيف تمّ توجيه الحديث؟

يقول محمد الخبو "يقرّ فاولر(Roger Fowler) بضرورة اعتبار صوت الفرد في القول معبّرا عن مواقفه وصائغا لخططه بقصد الإيقاع بالمخاطب.ويرى فاولر أنّ اللغة بصفة عامة موجّهة (Modalized) رغم بعض الظواهر التي توهم بنفي ذلك عنها.فقولنا مثلا "اقترب زيد من الباب"قول موجّه من حيث أنّ القائل أخذ على عاتقه مسؤوليّة أن يكون شاهدا على حصول ما نقله وحتى ما يبدو غير موجّه من الكلام من الناحية التركيبيّة هو في الحقيقة موجّه بطريقة أو بأخرى"[13]

إنّ هذا الشاهد يدعم ما ذهبنا إليه حول اعتبار خطاب المتكلّم في "دومة ود حامد" موجّها من جهات عدّة وأساسا عندما أخذ على عاتقه مسؤوليّة تضخيم المرجع وتقديمه للمخاطب كما يراه أهل القرية لا كما هو في واقع الناس، نخلة عالية في أرض صخريّة تحاذي النيل.

إنّ المرجع في هذه القصّة ينأى بنفسه عن الواقع من جهات عدّة، بل هو يباين الواقع أشدّ المباينة لأسباب مختلفة، منها أنّه تشكّل لغة في كلام المخاطب. ومنها أنّه قُدّم إلينا مُلوّنا بجهة اعتقاد جمعيّة تحملها، أو تنوبها جهة اعتقاد ذاتيّة.

ومنها كذلك أنّ تقديس مرجع الدومة والاعتقاد فيه ساهما في مباينته للمرجع في الواقع و في مخالفته في أبسط تفاصيله منطقيّة.

فصار مرجع القصّ في حكم المتكلّم هبة سماويّة، لا بداية لها ليقول محاججا "تقول من زرع الدومة؟ ما من أحد زرعها يا بنيّ. وهل الأرض التي نبتت فيها أرض زراعيّة؟ ألم تر أنّها حجريّة مُسطّحة مرتفعة ارتفاعا بيّنا عن ضفّة النهر كأنّها قاعدة تمثال، والنهر يتلوّى تحتها كأنّه ثعبان مقدّس من آلهة المصريين القديمة؟ لا يا بني ما من أحد زرعها" (الدومة ص 34).

وقد مضت الدومة في التضخّم والامتداد على مدى سرد أقوال المتكلّم وقدّت من لغته قطعة، قطعة (Puzzle) لتصير هامة أسطوريّة نازعة إلى الغموض و الإبهام من جهة النشأة وجهل تاريخ غرسها وغرابة الأرض الصخريّة التي تقوم عليها، كما تصير حكايات صاحبها موغلة في التخييل والأسطرة مثل حكاية المملوك المؤمن وحكاية المصلاة التي تسير على الماء والطعام الممنوح وحكايات إبراء المرضى...

III. على سبيل الخاتمة: "زيارتك ليست شرّا كلّها"

لقد سعينا في هذا البحث إلى استكناه بعض خصائص الخطاب الإحاليّ في قصة"دومة ود حامد" للطيب صالح، وكيفيات تشكّله قصصيّا وامتزاجه بوجهة نظر مُنجزه،وتلبّسه بقصديّته وغاياته الدفينة، لنصل إلى جملة من النتائج منها:

- أنّ صياغة المرجع الرئيس في الأقصوصة ارتبط بمقاصد المتكلّم وهو يصنع خططه وينضّد صوره وأفكاره، ليؤثّر في المرويّ له حتى يذكر القرية بخير، لذلك تلوّن هذا المرجع بجهة اعتقاده ووصلنا موتودا إلى وجهة نظره.
- أنّ المرجع النصّيّ باين مراجع الواقع من جهات مختلفة، أهمّها طريقة وصفه، وقد أثبتنا توجيهها من قبل الواصف بغية جرّ المتقبّل إلى طبقات من الرؤية عميقة، تتدرّج حتى يصير الموصوف لا ما تراه عين المرويّ له بل ما يعتقد فيه المتكلّم وأهل قريته.
- أنّ المتكلّم حاول الإيهام بالموضوعيّة والحياد عند إنجاز إحالاته وأوكل العديد من الأخبار والأحداث لساردِيها يقدّمونها، وأقنع المرويّ له أنّه لا يتجاوز بذلك حدّ الإخبار والملاحظة، ولكنّ أساليب تقديمه لهذه الأخبار والحكايات، وأحكامه وتقويماته وتأويلاته لجملة مضامينها القضويّة تكشف موقع وجهة نظره، وجهة اعتقاده فيما يقدّم.

وقد قادنا النظر في الأقصوصة من جهة قول المتكلّم وكيفيات إدراكه للأشياء، إلى تجاوز النظرة المحايثة للنصّ القصصيّ. وفتح لنا بابا للاستدلال على بعض معاني المحال عليه ليصبح بحثنا في الدومة بحثا في نزوع المحال عليه إلى التضخّم والتعالي القدسي بطريقة تنأى به عن المرجع الواقعي وتجعله مرجعا قوليّا مصنوعا من لغة ولا يتجاوز حدود القصّ، إذ فيه ينشأ وبه يكبر ويتضخّم ويأخذ أبعاده الأسطوريّة حتى لا نكاد نري من حكايات المتكلّم إلاّ الدومة ولا نستشعر حياة في سكّان القرية إلاّ من خلالها. ولا يتوقّف استدلالنا عند هذا المستوى بل يتواصل ليطول رمزيّة الحياة فيها، فالحدث المتواتر في خطاب المتكلّم، والأشدّ تكرارا هو حدث العجز عن الحياة في القرية بسبب طبيعتها القاسية.[14] لتصبح عصيّة على غير أهلها وعلى من يزورها من أمثال الواعظ الحكوميّ ومفتّش المركز وصديق الابن وحتى المرويّ له فتقترن بمعاني الموت والفناء، ولنا أن نتساءل عندها: كيف قامت بها الحياة وتمّ لها العمار؟

إنّ الدومة هي سرّ الحياة في هذه القرية، وضامنها الرئيس وهي مصدر الثبات والاستقرار ،لذلك لا عجب أنّها تستهلك التاريخ والجغرافيا فيها، وتمتدّ إلى قلوب العباد.

الهوامش:

المصدر:

الطيب صالح: "دومة ود حامد" دار الطليعة، بيروت،1970 ص ص33 -52.

1 -الخطاب المنقول: (le discours rapporté): وفيه تتقلص المسافة بين القول ومرجعه تقلصا كبيرا، ويصبح المنقول من الكلام مباشرا وهو الأقرب إلى القارئ والأكثر محاكاة بالتعبير الأفلاطوني ويتفرع عن هذا الخطاب نوع آخر يسمّيه جينات الخطاب الفوري (Discours immédiat) وفيه يقع التخلص من تدخلات الراوي وتتكلّم الشخصية دون إذن منه وغالبا ما يكون باطنيا.

2 - Susan Sniader Lanser : the narrative act , point of view in prose fiction / pincelon university press, Prinalion , new jersy 1981; p 16.

3-Eric le Calvez, La description modalisée (un problème de poétique génétique à propos de l'énonciation de l'éducation sentimentale) in : Poétique, n° 99, septembre /1994, pp339-340 .

4 -محمد الخبو: "مداخل إلى الخطاب الإحالي في الرواية "مكتبة علاء الدين، صفاقس،2006 ص165.

5 -الشاهد و ترجمته من كتاب الدكتور محمد الخبو "مداخل إلى الخطاب الإحالي في الرواية" سبق ذكره ،ص167.

6 - نفسه ص 169.

7 -ومن ذلك ما يرويه الجاحظ عن عبد الرحمان بن حسّان بن ثابت الذي جاء إلى والده باكيا ليقول له"لسعني طائر. قال حسّان: فصفه لي يا بني. قال: كأنّه ثوب حبرة. قال حسّان: قال ابني الشعر وربّ الكعبة" كتاب الحيوان، طبعة دار الجيل بيروت، تحقيق عبد السلام هارون، ج3 ص65.

8 -جابر عصفور: الصورة الفنيّة في التراث النقدي و البلاغي عند العرب، ص113.

9-Searle ,Sens et expressions, op. .cit.pp208-209

10-التبئير الداخلي: (Focalisation interne) وفيها تقدم المعلومات عن طريق الشخصية من منظورها الخاص وليس للراوي من علم إلا بما تقدمه الشخصية.

11 - السرد المكرّر(récit répétitif) وهو أن ينقل الراوي ما حدث مرّة واحدة في الحكاية أكثر من مرّة في الخطاب.

12 - Nicole le querler : Typologie des modalité ; ed, presses universitaires de coen, 1996, p61.

13 -محمد الخبو: مداخل إلى الخطاب الإحالي في الرواية، سبق ذكره، ص168 . ويحيل الخبو على كتاب فاولر: Linguistics and the novel, First published, Methuen (London and New York), in 1977.

14-من الأمثلة على ذلك "ليس هذا غبارا ولا هو بالضباب الذي يثور بعد وقوع المطر.هذا سرب واحد من النمّتة التي تربط على الداخلين إلينا أفواه الطرق" (الدومة ص 33).